النهضة الزّراعيّة والصّناعيّة

ogeikandl.com

obeikandl.com

النهضة الزراعية

إذا كانت هناك ناحية مجهولة جهلاً تاماً في سيرة الملك فؤاد كبنّاء فما لا ريب فيه أنها ناحية ما عمله للزراعة عامة وللفلاح خاصة

وكثيراً ما حاول الصحافيون في حياة الملك أن يفوزوا بمعلومات تمكنهم من إحاطة الناس بما يعمله جلالته في هذا السبيل فلم يوفقوا إلى ذلك لأنه كان يأبى على رجاله أن يتحدثوا عن عمله

غير أنه لم يكن ليجوز لنا ونحن نكتب عن « فؤاد البنّاء » أن نغفل هذه الناحية المجهولة في سيرته ولا سيما أننا نعلم أنها ناحية حافلة بجلائل الأعمال

فذهبنا إلى سعادة محمد زكي الإبراشي باشا وهو الذي قضى سبع سنوات ناظراً لخاصة جلالة الملك فؤاد وسألناه أن يحدثنا في ذلك

قلنا لسعادته : نريد حديثاً مستفيضاً لأننا واثقون من أن كل شيء ستقولونه سيكون شيئاً جديداً تقولونه لأول مرة ويذاع لأول مرة

وفعلا كانت هذه أول مرة يتكلم فيها الإبراشي باشا فاستهل حديثه بقوله :

« لما عينت ناظراً للخاصة الملكية كنت أتوقع أن يكون المغفور له الملك فؤاد مهتمًا بشيء معين أكثر من اهتمامه بأشياء شتى فحرصت من اليوم الأول على اكتشاف الناحية التي تهمه أكثر من سواها فإذا بالأيام والأعوام تثبت لي الحقيقة التالية وهي أنه إذا تشرف صحافي بمقابلة الملك فؤاد خرج من حضرته وهو

يعتقد أن جلالته يكرس معظم أوقاته لشؤون الصحافة ويقيني أنه إذا اعتقد الصحافي ذلك كان معذوراً في اعتقاده لأنه يسمع من الملك ما لا يسمعه إلا من صحافيين مثله فكأنما كان يقابل زميلا له لا ملكاً وإني أسمح لنفسي بأن أقول « زميلا له » لأنه كان من أخص سجاياه أن يبعث في نفس زائره الثقة والطمأنينة فلا يشعر أنه في حضرة ملك

« فإذا قابله طبيب متخصص في أحد فروع الطب حادثه جلالته في أحدث نظريات فرعه فيتبادر إلى ظن الطبيب أن الملك وقف حياته على درس فرع الطب الذي تخصص هو فيه

« وإذا قابله رجل من رجال المال فدهشته لا تكون أقل من دهشة الصحافي والطبيب لأنه يسمع المليك يتكلم في الشؤون المالية كلام الخبير بها

« وإذا قابله رياضي ألفاه شديد الاهتمام بالرياضة كأكثر الناس ولعاً بها

« وحيث إن الزراعة هي الفرع الأول في عملي كناظر للخاصة شعرت من أحاديث جلالته الأولى معي أنه كرس حياته للزراعة وخيل إليّ في بادىء الأمر أن الزراعة والعناية بشؤونها تستغرق كل اهتمامه

« ولكني لم ألبث أن رأيت أن هذه الحالة عامة وأن ما أشعر به هو نفس شعور كل من يتشرف بمقابلته وعند ذلك أدركت السر في هذا الذي استوقف نظري واسترعى انتباهي فانه لما أُلقيت على عاتقه أعباء الملك جعل هدفه غاية سامية وهي أن ينهض بمصر والنهوض بمصر لا يمكن أن يكون في ناحية واحدة فوجب إذن أن يهتم بجميع نواحي النشاط

« وإني أعتقد أن جميع الذين عاشروه وقابلوه — وكانت مقابلاته كثيرة — يشاطرونني هذا الرأي

« وكذلك أعتقد أنه وفق توفيقاً كبيراً في توجيه نواحي النشاط في وجهة

الخير وخدمة مصر وأنه نجح نجاحاً باهراً في رفع شأن مصر حتى جعل لها مكانة سامية بين الأمم »

☆ ☆ ☆

واستطرد الإبراشي باشا من ذلك إلى الكلام عما عمله الملك فؤاد للزراعة فقال :

« كان للناحية الزراعية مقام عظيم في نظره لأنه كان يشعر أن دم محمد علي وابراهيم واسماعيل يجري في عروقه

« كان يعلم حقاً أن جده الأكبر محمد علي أوجد القطن لمصر وأن أباه اسماعيل أوجد السكر فأراد هو من جهته أن يوجد شيئاً جديداً

« فماذا يكون يا ترى ؟

« ماذا يكون الفرع الذي يترك فيه أثراً ؟

« فكر في ذلك كثيراً ثم اختار الفاكهة وتربية الماشية والصناعات الزراعية »

وهنا قاطعت الإبراشي باشا مستفهماً : وهل استنتجت سعادتك ذلك استنتاجاً أم كان من أحاديث جلالته ؟

فقال : « من أحاديث جلالته قطعاً »

واستأنف سعادته كلامه فقال : « وكان مما يفخر به كذلك أن جده ابراهيم وهو ذلك البطل الذي فتح عكاء ووصل إلى أسوار الآستانة لم يكن يفتخر بأنه القائد فقط بل كان يفتخر بأنه المعمر والزارع ، فغرس الزيتون يرجع الفضل فيه إلى ابراهيم

« فهذا الشعور بأنه منحدر من سلالة أولئك العظماء الذين وجهوا جهودهم إلى خدمة الانسانية والفلاح جعله يفكر في خدمة الفلاح

« وفي اعتقادي أنه يخطئ من يظن أن شدة اهتمامه بالزراعة ترجع إلى حب

اكتناز المال والحصول عليه فقد كان له غرض أسمى من ذلك ! كان غرضه أن يكون مثلا أعلى للفلاح فيقلده آخرون فتستفيد البلاد من ذلك »

* * *

ومضى الإبراشي باشا في حديثه فقال :

« قال لي الملك فؤاد ذات مرة : لقد أنعم الله عليّ بنعم كثيرة لا تحصى فوهب لي صحة وأولاداً ومالا كثيراً ما كنت أحلم به وملكاً لم يكن يخطر لي ببال وبالجملة لم تخطر ببالي نعمة إلا كانت من نعم الله عليّ ولكن من الغريب أنني حرمت من شيء بسيط جداً وهو أنني لم أستطع في حياتي كملك أن يكون لي بستان يصح أن يسمى بهذا الاسم . . . فلماذا تكون هناك بساتين في البلدان الأخرى تليق لأن تكون مثالا يحتذى ولا يكون لي شئ منها ؟

« إذن لم يطلب البستان لأنه كان ينتظر أن يدر عليه مالا فقد كان يتحدث بنعمة الله ووفرتها

« إنما كان يطلبه ليكون مثالا يحتذى في البلاد — إذا أمكن عمل ذلك

« وكان من الطبيعي أن يكون هذا الحديث أكبر حافز لي على درس الموضوع مع رجال الفن فدرسته دراسة وافية وبعد ذلك عرضت عليه نتائجها فشجعني على تنفيذ المشروع وتحقيقه

« وفعلا بدأت العمل في انشاص ومضيت فيه أربع سنوات حتى ظهرت بوادر النجاح وكنت قد أنفقت من ماله وبرضائه التام خمسين ألفاً من الجنيهات... في تلك الصحراء الجرداء

« وكان من عادة جلالته أن يزور تفاتيشه مرة في السنة على الأقل أو مرتين فلما زار هذه الحديقة في أول سنة ولم تكن بوادر النجاح قد ظهرت بعد قال لي : إني أتمنى لك النجاح في هذا العمل الجريء في وسط الصحراء وبالطبع أنك لم

تشرع فيه إلا وأنت كبير الأمل بنجاحه فإذا قدر له النجاح وبدأت الأشجار تزهر وتثمر فهل فكرت في الرياح التي ستعصف بها في وسط هذه الصحراء فتذهب بالأزهار وتمنع نمو الثمار ؟

« قال هذا لأني لما غرست الأشجار لم أتخذ من الاحتياطات ما يمنع عنها فعل الرياح عند ما تهب وتعصف وفاتني التفكير في الضرر الذي ينشأ من ذلك ولم ينبهني له رجال الفن فأدركت في الحال أن للملاحظة الملكية أكبر قيمة وأن لا أمل في هذه الحديقة إلا إذا احطناها بما يدرأ عنها الخطر فأقمت حولها سورا من البناء وغرست قربه وعلى امتداده أشجار الجزورينا بنظام تام وعنيت بهذه الأشجار عناية فائقة حتى إن السائر في تلك البقعة يحسب نفسه في قطعة من اوربا

« أنجزت هذا العمل بمنتهى السرعة فلما بدأ إثمار الحديقة في السنة الرابعة وجاءت زيارة الملك لها في وقت ازدهار الأشجار وتعطر الجو بأريج أزهارها وقف جلالته يسرح الطرف في تلك الأشجار ويتأمل جمال الطبيعة وما يحيط بالبقعة التي وقف فيها من مناظر خلابة ثم سكت دقائق

« وعندئذ تذكرت ما قاله لي يوماً عن أمنيته في أن يكون له بستان

« واقتربت قليلاً منه وقلت : لعل جلالتكم قد ارتحتم إلى ما شاهدتموه

« فحمد جلالته الله وقال : لقد أتم الله عليَّ نعمته

« ثم تفضل وشكرني فكان هذا اليوم من أسعد أيام حياتي »

وتابع الابراشي باشا حديثه فقال :

« اتفق بعد ذلك أن كبيراً من أعضاء مجلس النواب البريطاني جاء بتوصية من وزير مصر المفوض في لندن — وكان إذ ذاك سعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا — ليقابل جلالة الملك ويعرض عليه آراءه واقتراحاته في شأن إصلاح حالة

الفلاح من جهة مسكنه في الريف فبعدما قابله جلالته أرسله إليَّ لكي يزور تفتيشاً من التفاتيش الملكية ويرى بنفسه المساكن التي تعد هناك للفلاحين حتى إذا عنَّت له ملاحظات في صددها كاشفنا بها

« وذهب هذا النائب الكبير وهو في الوقت نفسه من أثرياء الانجليز وشاهد المنازل الريفية التي كنا نبنيها للفلاحين وكذلك شاهد كيفية تقسيم الشوارع في العزب والنظافة التامة التي تراعى فيها فلما انتهى من جولته قال إنه لم يظن قط أن ملك مصر يعمل كل هذا لمصلحة الفلاح في تفاتيشه ثم أعرب عن رغبته في زيارة انشاص فأجيب إلى ذلك ولما عاد إلى العاصمة جاءني وقال لي أرجو منك أن تبلغ جلالة الملك أولاً شكري على تفضله بالسماح لي بزيارة هذه التفاتيش وثانياً أنني سررت وارتحت كثيراً إلى العناية التي يبذلها لخير الفلاح وأن المساكن التي أعدت له يصح أن تكون مثالاً يحتذى وأنه ليس لي ملاحظات ما عليها وثالثاً أنني أهنئه بحدائقه التي أعدها كأحسن حدائق العالم طراً

« فقلت له : اسمح لي وأنت تطلب مني إبلاغ هذه الرسالة أن أوجه نظرك إلى أنه من غير المستطاع تكوين حكم كهذا وإصداره قبل أن يزور المرء جميع أنحاء المعمورة ويشاهد ما تحويه من حدائق

« فقال : لك حق ولكني أؤكد لك أنني زرت حدائق في أميركا وأوربا وآسيا وأفريقيا فلم أر أحسن من انشاص

« وكأنما أراد أن يزيدني اقتناعاً بما قاله فسلمني كتاباً بخطه لأرفعه إلى جلالة الملك وقد أثبت فيه هذا المعنى

« فلما اطلع الملك على هذا الكتاب قال إن أمثال هؤلاء العظماء يحبون إدخال السرور على نفوس من يزورون . وعد جلالته الكتاب مجاملة من هذا النائب الكبير لا أكثر »

واستمر سعادة محدثي يحدثني عن عمل الملك فؤاد في انشاص فقال :

« وماذا حدث بعد ذلك ؟

« سمعت أن كثيرين من الإسرائيليين المتخصصين في البساتين نزحوا إلى فلسطين وأنهم أنشأوا فيها حدائق للموالح وغيرها وأن هذه الحدائق تعد مفخرة وتضارع مثيلاتها في كاليفورنيا بأميركا . وذهب بعضهم إلى أنها فاقت مثيلاتها في كاليفورنيا فقلت لجلالة الملك مرة إنه إذا كانت كاليفورنيا بعيدة عني ولا أستطيع الوصول إليها فلا أقل من أن أزور فلسطين فأقتبس من حدائقها ما يصح العمل به في إنشاص فإن ما سمعته عن بساتين فلسطين يشجعني على استئذان جلالتكم في الذهاب إليها فأشاهدها بنفسي فأذن لي في ذلك وقضيت فعلا فترة من الزمان بين ربوع فلسطين وسوريا ولبنان متفقداً حالة البساتين والمزارع وعدت بفوائد اقتبستها وطبقتها في انشاص كما عدت من ناحية أخرى بعقيدة راسخة وهي أنه إذا كانت بساتين فلسطين تضارع بساتين كاليفورنيا كما سمعتهم يقولون في فلسطين فإن انشاص إن لم تكن أحسن حدائق العالم كما قال النائب البريطاني الكبير فإنها في مقدمة حدائق العالم قاطبة

« وحدث بعد ذلك و بعد وفاة المغفور الملك فؤاد واعتزالي منصبي في الخاصة أن الحكومة المصرية ندبت خبيراً من أميركا لمعاينة بساتين مصر وتقديم ملاحظاته عليها وعلمت أنه قدم تقريراً أثبت فيه أن بساتين انشاص تنقسم قسمين : قسم خاص بالموالح (برتقال ويوسفي وليمون الخ . .) وقسم خاص بالمانجو . فالقسم الخاص بالمانجو هو أول حديقة في العالم مساحة ونوعاً . وأما القسم الخاص بالموالح فإنه الثاني فسئل : وما هي الحديقة الأولى ؟ فقال : هي حديقة في كاليفورنيا أنشأها هو نفسه

« وكان المستر برت فيش وزير أميركا المفوض السابق في مصر يعنى بالحدائق

والبساتين وله بستان كبير في ولاية فلوريدا فلما سمع عن بساتين انشاص استأذن الملك في زيارتها فأمرني جلالته بأن أرافقه في هذه الزيارة فقضيت معه يوماً كاملا في تلك البساتين ولم يكن إنشاؤها قد تم بعد فرأى في ذلك اليوم الجزء الذي تم إنشاؤه مثمراً وشاهد أقساماً أصغر منه غير مثمرة بعد ورأى كيف تجهز الأرض في الصحراء لتتحول من صحراء إلى حديقة ورأى عدداً كبيراً جداً من العمال يعملون في هدوء ونظام وبهمة عرفت عن المصريين في الزراعة كما رأى الماشية تجهز الأرض فأعجب بهذا المنظر وبهذا النظام وبهذه العناية بالعمال وقال لي إنه وإن كان يعتني بمزارعه وبستانه إلا أنه ليس هناك وجه المقابلة بينها وبين بساتين الملك »

* * *

وهنا انتقل محدثي إلى الكلام عن تشجيع الملك الراحل للفنيين المصريين فقال:

« هذه البساتين التي أنشأها الملك فؤاد وانفق عليها خمسين ألفاً من الجنيهات قبل أن يستفيد منها شيئاً استخدم فيها العلم والفن وكانت مدرسة أظهرت كفاءة الفنيين المصريين واستفادوا هم أنفسهم إذ غيروا كثيراً من المبادئ التي كانوا يعتقدون صحتها وطبقوا مبادئ جديدة عادت على البلاد بالخير والبركات

« وكانت زيارتها مباحة لجميع شبابنا المصريين وغير المصريين كذلك ليستفيدوا مما عمل فيها وليفيدوا مما يرون الإشارة به وهذا هو ما كان الملك فؤاد يقصده فتحقق قصده

« وسأسرد لكم بعض الأمثلة لتروا كيف استفاد الفن على أيدي الفنيين المصريين بعد التجارب التي جربت في انشاص

« كان الاعتقاد السائد أن البرتقال المعروف « بأبو صره » لا يصلح في الأراضي الرملية كأراضي أنشاص ولذلك كان الفنيون يشيرون بعدم غرسه في

مثل تلك المنطقة ولكن التجربة في أنشاص وملاحظة الفنيين لها أدت إلى تغيير هذا الرأي فهذا الصنف من البرتقال يجود بإنشاص بل يجود الآن في غيرها من المناطق المماثلة إذا طعم على الليمون البنزهير

« وكان الرأي متجهاً دائماً إلى تطعيم البرتقال على شجر النرنج فدلت التجربة في أنشاص على أن التطعيم على شجر الليمون البلدي يفيد كثيراً في الأراضي الرملية

« وأثبتت التجربة في أنشاص أن العنب يجود كثيراً في الأراضي الرملية فجاءت مؤيدة لتجربة جانا كليس ومعززة لها

« وفي حدائق انشاص استعملت بنجاح ، وفي مساحة واسعة ، طريقة تلقيح شجر القشطة تلقيحاً صناعياً بذكاء أحد الشبان المصريين الفنيين الذين تعلموا في أوربا وكانت نتيجة هذه التجربة مدهشة لدرجة أن فدان القشطة الذي كانت غلته تباع بخمسة عشر جنيهاً أعطى بعد التلقيح الصناعي مئة وخمسة وعشرين جنيهاً ولم يكن هناك غلاء حرب

« وجميع هذه التجارب كان الملك فؤاد يتتبعها بنفسه ويسأل عن نتائجها ويسر سروراً عظيماً كلما نجح شاب مصري في عمل من هذه الأعمال فيشمله برعاية خاصة وقد يأمر بدعوته إلى مقابلته ليناقشه وليقف منه على التفاصيل بنفسه

« ومما تقدم يتبين لكم كيف أضحت انشاص معهداً علمياً وعملياً في آن واحد »

* * *

وانتقل زكي باشا إلى نقطة أخرى في الموضوع فقال :

« ومن الأمور الهامة التي روعيت في أنشاء بساتين إنشاص، ولم يكن معمولاً بها في مصر من قبل ، التوفيق بين الوجهة التجارية والوجهة الزراعية

« و بيان ذلك أن الذين أنشأوا البساتين قبلا كانوا يغرسون الأشجار حسب ورودها من المشاتل فكنت تجد الحديقة عندما تثمر مزيجاً من أشجار لا تجانس بينها ولا نظام ، ولكن في انشاص روعي أمر هام وهو الوجهة التجارية ، فقد كان الصنف يختار من أشجار معينة ، ثم تطعم الأشجار الصغيرة على الصنف الذي وقع الاختيار عليه في أماكن معينة ، فإذا وقع الاختيار على صنف معين من البرتقال طعمت عليه مساحة معينة ، وبذلك تكون الأشجار متجانسة ، وعند ما تثمر يمكن أن يقدم للتاجر من كل صنف كل الكمية التي يطلبها ، وكذلك الحال في المانجو ، فإنك تجد في انشاص لكل نوع مساحة مخصصة ، فإذا أراد التاجر كمية معينة من نوع معين وجدت بسهولة

« وماذا كان غرض الملك فؤاد من هذا كله ؟

« كان له غرض جليل ، وهو أن يشق الطريق إلى الإصدار إلى الخارج ، فتكون حدائق انشاص مثالاً أعلى لهذا الاتجاه الجديد ، فيستطيع التجار المستوردون من مصر أن يجدوا حاجتهم من نوع معين بطريقة سهلة بناء على عينة بسيطة

« ترتب على ذلك ضرورة إنشاء متحف محلي ، فإذا دخلت هذا المتحف ، وجدت مثلا نماذج للمانجو تبين كل نوع بحجمه الطبيعي ونوعه كما تبين ما يحويه من لب وسمك القشرة وحجم النواة ، فإذا أراد التاجر أن يشتري نوعاً معيناً فليس عليه إلا أن يختار النوع حتى قبل أن يثمر الشجر فيستطاع البيع على العينة الموجودة في المتحف

« وهنا أقول لكم إن الملك فؤاداً كان يروم أن يستفيد ، وأن تستفيد البلاد من كل فني في وزارة الزراعة ، أو في خارج وزارة الزراعة ، فلم نترك فنياً لم نستفد برأيه و بعلمه سواء كان ذلك من الوجهة النباتية أو الحشرية أو من الوجهة

التجارية ، ومن نعمة الله أن هذه البساتين أينعت وأثمرت في حياة جلالته ، وبيعت ثمارها بأسعار تعلو كثيراً على أسعار ثمار سائر حدائق البلاد

« ولما كانت فكرة الملك فؤاد هي تشجيع الإصدار إلى الخارج لم يكن هناك بد من إنشاء حدائق أخرى ليزيد المحصول الأهلي على حاجة الاستهلاك المحلي ، وفعلاً انشئت في الأوقاف الملكية حدائق في شلقان ، وكفر الحمام ، وكوم زعران باتياي البارود ، وكلها في طليعة بساتين مصر »

* * *

وزاد محدثي على ما تقدم قوله :

« ولماذا قال ذلك الخبير الأميركي إن حديقة المانجو التي في انشاص هي أحسن حديقة من نوعها في العالم ؟

« قال ذلك لأن الملك فؤاداً عني بجلب جميع أنواع المانجو من البلدان التي تجود فيها علاوة على الأنواع التي كانت موجودة في مصر فأحضرنا أنواعاً متعددة من سيلان والهند وجاوه وسومطره — وكلها أنواع ناجحة ، وتزيد في السوق سنة بعد أخرى »

* * *

وختم الإبراشي باشا هذا الجزء من حديثه بقوله :

« وإذا كانت هذه الحدائق قد أعطت الملك فؤاداً ثمرة مالية فما لاريب فيه أنها أفادت البلاد بإضعاف هذه الثمرة لأنها كانت مدرسة نبغ فيها كثيرون من الشبان المصريين فأفادوا بلادهم ولا يزالون يفيدونها ، وغيرت طريقة إنشاء الحدائق تغييراً تاماً وشجعت على الإصدار ، ولولا ظروف الحرب الحالية لجنت البلاد من الإصدار خيراً كثيراً

« ولم يكن الغرض الوقوف بالبساتين عند هذا الحد ، فقد كانت نية الملك فؤاد متجهة إلى جعلها أساساً ترتكز عليه صناعة من الصناعات الزراعية الهامة فنستفيد من الليمون البلدي في بعض الصناعات ونستفيد من البرتقال واليوسفي في صنع فاكهة مسكرة وشراب

« هذه الفكرة كانت موجودة وشرع في بحثها فعلا لما اختار الله الملك فؤاداً إلى جواره

« ولكن من حسن الحظ أنها تحققت ، أو أخذت تتحقق في كلية الزراعة على يد الدكتور توفيق الحفناوي بك ، فقد كان أحد الذين يدرسونها ، ولا ريب في أنه إذا استمرت البلاد في هذا الاتجاه فإنها تجني من ذلك خيراً كثيراً »

* * *

وفي جلسة أخرى استأنف الإبراشي باشا حديثه عما عمله الملك فؤاد للزراعة والفلاح فقال :

« أثبت التاريخ أن الخديو إسماعيل باشا وصل في اهتمامه بالزراعة ، وهو أمير ، إلى أن أصبح أكبر مزارع في مصر كما قال قنصل أميركا في القاهرة في تقرير كتبه إلى حكومته لما تولى إسماعيل الحكم

« فلاغرابة إذن أن يكون بين أنجال هذا العاهل العظيم مثل السلطان حسين وقد لقب بأبي الفلاح

« والواقع أن الملك فؤادا كان صديق الفلاح وحامي الفلاح . حدثني عن نفسه أنه لما عاد من أوربا ، وهو شاب ، عني بالزراعة عناية خاصة في تفتيش كان موقوفاً عليه منذ طفولته ، وظل هذا التفتيش محبباً إلى نفسه حتى آخر حياته

« كان يعرف هذا التفتيش حوضاً حوضاً وقطعة قطعة ، وكان يعرف كثيراً من سكانه وعمدته ومشايخه معرفة شخصية ، وكان يحادثهم في زياراته السنوية له حديث من عاشرهم زماناً طويلا

« قال لي جلالته إنه كان كثير التردد على هذا التفتيش و إنه كان يشرف على زراعته بنفسه حتى أنه كان يقف في الغيط في شهري مايو و يونيو يلاحظ الفلاحين بشخصه وهم يخدمون القطن وقد بنى له داراً جميلة في هذا التفتيش ليقيم فيها من وقت إلى آخر وأنشأ بجوار هذه الدار حديقة غرس فيها أنواعاً كثيرة من الفاكهة

« ولاحظ يومئذ — أي وهو أمير — أن حالة الفلاحين غير صالحة من جهة السكن والمعيشة والظروف الإجتماعية فكان ماء الشرب أول ما اهتم به فأوجد لهم طلمبة ارتوازية ليشربوا من مائها ولايزال رجال التفتيش يشربون منها إلى الآن وماؤها عذب ومن خير مايشرب الناس من الآبار الارتوازية

« وكان يبر بالفلاحين في الأعياد والمواسم فيوزع عليهم الكساوى واللحم والحلوى وغير ذلك

« فلما أُلقيت على عاتقه أعباء الملك ظل هذا التفتيش محبباً إلى نفسه وزادت عنايته به فأنشأ فيه من المساكن للفلاحين ومن المخازن والاصطبلات ما يصح أن يكون نموذجاً يحتذى لا في مصر وحدها بل في أرقى بلدان العالم كذلك ثم عنى بإصلاح أراضيه وظل يتتبع مراحل هذا الاصلاح بنفسه إلى أن وصل هذا التفتيش إلى درجة تجعله في المرتبة الأولى بين التفاتيش الزراعية في البلاد

« وعنى بمحصولاته حتى أنتج في إحدى السنين ما أدهش رجال الفن الزراعيين في وزارة الزراعة فأنتج فدان القطن بمتوسط ٨½ قنطار من صنف جيزه ٧ والقمح ١١ أردباً من الصنف الهندي والفول ١٢ أردباً والأرز — وقد زرع في بعض الأطيان — ٣⅕ ضريبة والذرة ١٨ أردباً — وهي أرقام تعد مدهشة إذا اجتمعت لتفتيش في سنة واحدة ولم نصل إلى هذه النتيجة إلا بسبب العناية بالري والصرف وتنظيم دورة ثلاثية نفذت بدقة ومراعاة نظافة الأرض من

الحشائش الضارة ومقاومة الحشرات واستخدام أحدث الطرق الفنية

« ولم تقف عناية الملك فؤاد عند هذا الحد بل وصل إلى إنتاج أحسن قطن في مصر لا في هذا التفتيش وحده بل في سائر تفاتيشه كذلك وفي أطيان الأوقاف الخصوصية الملكية

« وكان المعروف في البلاد وعند التجار أن قطن الدومين في مصلحة الأملاك هو أحسن قطن مصري وكان من المعروف كذلك أن المغفور له الأمير كمال الدين حسين ينتج أحسن قطن فى مصر فاستطاع الملك فؤاد فى آخر سني حياته أن يوفق بعنايته الشخصية المتواصلة إلى إنتاج أنواع من القطن هي بلا شك أحسن ما تنتجه أرض مصر من القطن وسلم التجار والمشتغلون بانتخاب القطن و إصداره أن الملك فؤاداً ينتج سيد أقطان العالم

« وكان من عادتي أن أبيع قطن الملك فى عدة جلسات علنية أرأسها بنفسي ولم يكن التجار الذين كانوا يحضرون فى بادىء الأمر من تجار الطبقة الأولى فى القطن ولكن عناية جلالته بهذه الزراعة وتتبعه لها سنة بعد أخرى والاستئناس بآراء الفنيين والعمل بنصائحهم — كل ذلك أدى إلى ازدياد عدد الذين يحضرون المزاد من أرقى طبقات التجار وكان الأجانب منهم يحضرون مع المصريين و يشتركون في المزاد اشتراكاً فعلياً و بعد ما كان الأجانب فى أول الأمر يرسلون مندوبين عنهم صاروا يحضرون بأنفسهم و يشتركون فى المزاد بأشخاصهم احتراماً لهذه المزادات وتقديراً للجهود التي كانت تبذل لتحسين هذه المحصولات

« وكان الملك يرتاح ارتياحاً عظيما لا إلى الأثمان العالية التى كنا نحصل عليها والتي لم يكن لها مثيل بل إلى ما كنت أنقله إليه عما يتحدث به التجار من أن قطنه يحتل المكان الأول بين أقطان مصر كلها

« وحدث مرة أن حضر المسيو الكسندر بينا كي وهو من كبار تجار القطن

واشترك فى المزاد وأعلن أنه كان يشتري دائماً قطن المغفور له الأمير كمال الدين حسين وكان يعده أحسن أقطان العالم فما توفي سموه ظن أنه لن يجد لهذا القطن بديلاً ولكنه لم يلبث أن شعر بدهشة عظيمة لأن بعض أقطان الملك فؤاد فاقت أقطان الأمير كمال الدين حسين ، و إظهاراً لإعجابه أعلن في الجلسة أنه يزيد في ثمن هذا القطن خمسة ريالات على أعلى ثمن يصل إليه القنطار وينفذ ذلك فعلاً

« ولم يكن حضور جلسات المزاد مظهراً من مظاهر المجاملة فان التجار لايضيعون وقتهم في مجاملات ولكنهم كانوا يحضرون حرصاً على عدم إفلات هذه الأقطان من أيديهم ولكي يفوزوا بها إذا استطاعوا ذلك

« ولم يكن هم الملك فؤاد مقتصراً على إبلاغ القطن وحده المرتبة الأولى بل كان تفكيره متجهاً إلى تحسين أنواع جميع المحصولات الأخرى فكان هناك في تفتيش الفاروقية نوع من القمح الهندي إذا طحن أعطى ٨٥٪ دقيقا فضلا عن أنه يشتمل على نسبة عالية من « الجلوتين » ومن المعروف أن كندا مثلا وهي من أحسن البلدان التي تنتج القمح لاتزيد فيها النسبة التجارية العادية على ٨٠٪ ولم يكن من المتيسر الحصول على نسبة عالية تصل إلى ٨٥٪ إلا في بعض مقاطعات روسيا ورومانيا

« أما فيما يتعلق بالشعير فقد عني بنوع استنبطه الفنيون بوزارة الزراعة من أنواع الشعير البلدي فأكثرنا من زراعته فى أدفينا وغيرها . ودلت التجربة على أنه صنف يصلح لصنع البيرة و يباع في الأسواق بأثمان أعلى من أثمان أصناف الشعير الأخرى ولايزال هذا الصنف ينتشر باطراد في البلاد و يستخدم في صنع البيرة . وانتهزت فرصة وجودي في أوربا في سنة ١٩٣٥ فزرت بعض مصانع البيرة وعرضت عليهم هذا الصنف من الشعير فأكد لي الفنيون في تلك المصانع أنهم يستطيعون استخدامه في صنع البيرة بدلا من أن يستوردوه من تشكوسلوفاكيا وغيرها

« أما الفول فكان له من الخاصة عناية كبيرة إذ كنا ندخل على صنفه تحسيناً يطرد سنة بعد سنة لنصل إلى تكبير حبوبه وجعلها متماثلة في اللون والشكل

« هذا فيما يتعلق بالمحصولات الرئيسية . وفيما يتعلق بالقصب مثلا عنيت الخاصة بإرشاد الملك بزراعته عناية فائقة واسترشدت بتجارب المجربين في زراعته و بعلم فني أميركي كبير خدم الحكومة المصرية وساعد شركة السكر زماناً طويلا فحصلنا بذلك على نتائج تماثل ماتصل إليه سائر التفاتيش والزراعات المعنية بالقصب سواء كان ذلك من حيث كمية المحصول في الفرس والخلفة أو من حيث الحلاوة ونسبتها العالية

« وكان جلالته يعنى بكل محصول مهما يبدو لأول وهلة أنه غير كبير القدر فكنا نسعى لتحسينه والاستفادة منه لأقصى درجة »

* * *

وهنا أخذ سعادة محدثي يتكلم عما صنعه الملك فؤاد للفلاح بوجه خاص فقال :

« ولم تكن فكرة الملك فؤاد متجهة إلى الكسب عن طريق الزراعة و إهمال شأن الفلاحين بل كانت له غاية اجتماعية سامية بدأ يحققها وهو أمير بتحسين حالة الفلاح كما تقدم ولكن لما تبوأ العرش واتسع الأفق أمامه رأى أن يدخل نظاماً اجتماعياً جديداً كان يؤمل من أعماق قلبه أن يكون نواة صالحة لإصلاح اجتماعي شامل يتحقق تدريجاً مع الأيام فقد كان جلالته لا يؤمن بالطفرة بل يرى أن كل إصلاح يتم بالتدريج يكون أثبت أساساً وأكثر رسوخاً وأحب إلى النفوس من غيره علاوة على أنه يتيح للقائمين به فرصة لإصلاح الأخطاء التي تكشف عنها التجربة

« فماذا عمل ؟

« بدأ بتحسين مساكن الفلاح فعمّم هذا النظام في جميع التفاتيش التي يملكها

وأوجد من المساكن ما بني على أساس صحي سليم متين وجعل للماشية زرائب خاصة غير متصلة بالمساكن وروعي في البناء توفر التهوية الكافية ودخول الشمس إلى البيوت واتساع الطرق حتى ليخيل إلى المرء وهو يسير في عزبة من العزب الملكية أنه في بقعة من مدينة راقية

« وسبق أن أشرت إلى أن كبيراً من كبار الانجليز — وهو النائب بوسن — حضر إلى مصر خصيصاً ليعرض على الملك بعض آرائه في إصلاح مساكن الريف فلما زار انشاص ورأى المساكن التي أنشأها الملك فؤاد فيها قال إنه ليست له ملاحظات يبديها غير إعجابه بكل ما رأى

« قال ذلك الكبير الانجليزي ما قاله في وقت كانت تلك المساكن قد بلغت فيه حالة مرضية ولكني لا أدري ماذا كان يقول لو زار التفاتيش بعد سنتين أو ثلاث سنوات لأنه كان يرى حتماً ما هو أعجب مما رآه في المرة الأولى بمراحل

« و بيان ذلك أنني زرت مرة تفتيشاً لأحد السويسريين في الدقهلية وكان معروفاً عن هذا الرجل — رحمه الله — أنه من الذين يحبون المصريين و يعملون لما فيه خيرهم فأعجبني جداً عند زيارتي لتفتيشه أنه لا يكتفي بانشاء مساكن حسنة للفلاحين بل كان يبني بيوتهم من طابقين فلما عدت من زيارتي وأفضيت إلى الملك بما رأيت سر كثيراً وأعجب بعمل هذا الأجنبي فعلت منزلته عنده وأكرمه حتى أنه لما توفي أوفد مندوباً للاشتراك في جنازته والناس لا يعلمون سر هذا العطف

« ولما انتهيت من سرد ما شاهدته في عزبة ذلك الأجنبي قال جلالته : أيجمل بي وأنا ملك مصر أن أكون أقل عناية بالفلاح المصري من هذا الرجل ؟

وأمرني جلالته في تلك اللحظة بأن أغير خطة بناء المساكن وأن أجعل دائماً

بيت الفلاح من طابقين فيتمتع بالسكن في الطابق العلوي على الأقل في فصل الصيف

« ثم أمر بأن يكون في كل عزبة من عزبه مصلى وهو جامع صغير ومكان للضيافة ودكان تباع فيه حاجات أهل العزبة وأن يوجد ماء صالح للشرب وأحواض لشرب الماشية يصل اليها الماء نظيفاً وأن تكون الشوارع دائماً في غاية من النظافة وأن تغرس على جوانبها الأشجار

« وزاد في عنايته فأمرني بأن أقرر مبدأ صرف مكافآت للفلاحين الذين يعنون بنظافة بيوتهم وأن تؤلف لتوزيع هذه المكافآت لجنة فيها طبيب فتتفقد مرة فى الأسبوع وفي أوقات غير معروفة نظافة المساكن وتضع لها درجات ثم تجمع هذه الدرجات في آخر السنة وتعين المكافآت من ثلاث درجات فالذين يفوزون بالدرجة الأولى يمنحون اثنا عشر جنيهاً والذين يفوزون بالدرجة الثانية يعطون ثمانية جنيهات والذين يفوزون بالدرجة الثالثة يصرف لهم ستة جنيهات . وكان لكل فلاح الحق في أن ينال مكافأة طبقاً لدرجة نظافة مسكنه وكنت أوزع هذه المكافآت في حفل محلي يحضره أهل التفتيش فتبسط لهم المبادىء والقواعد التي بنيت عليها المكافأة ثم توزع المكافآت على الفائزين وكانت تزداد كل سنة على ما كانت في السنة التي قبلها

« وكان الملك فؤاد يعنى بالوقوف على مدى التقدم الذي تتقدمه العزب من هذه الناحية ولاحظ مرة وهو آسف أن واحداً من الأهلين لم ينل درجة ما في السنة بطولها فقال إن مثل هذا الشخص جرثومة يجب استئصالها لأن النظافة والعناية يجب أن تكونا في مقدمة ما يعنى به أصحاب الأطيان

« وأمر جلالته بأن يكون في كل تفتيش مستوصف للعناية بصحة الأهلين ومعالجة مرضاهم وأنشأ في أكبر تفاتيشه وهو تفتيش ادفينا مستشفى كاملاً يحتوي

على قسم للجراحة وآخر للطب الباطني وقسم ثالث للنساء والولادة وقسم رابع للرمد وكان الأطباء يعملون عمليات كبيرة في هذا المستشفى بنجاح فاذا بلغ أمرها جلالته سر به سروراً عظيماً

« وأمر جلالته كذلك بأن يكون العلاج مجاناً وبأن تصرف الأدوية مجاناً كذلك

« وكان تفتيش أدفينا مباءة لبعوض الملاريا ومرتعاً خصباً لهذه الحمى الخبيثة فصرف جلالته همه في القضاء عليها غير مبال بالأموال الطائلة التي كان ينفقها في هذا السبيل من إرسال كميات عظيمة من الكنين إلى تجفيف المستنقعات وتحققت غايته قبل وفاته فإن اهتمامه المستمر كان الحافز إلى ردم جميع المستنقعات التي كانت في هذا التفتيش وتبلغ مساحته ١٦ ألف فدان فأضحت الإصابات بالملاريا في أدفينا نادرة بعد ما كانت وباء متوطناً

« وكان في كل تفتيش مدرسة أولية لتعليم أبناء الفلاحين

« ونشأ من هذه العناية بصحة الفلاحين وعقولهم أنهم أصبحوا أقدر على خدمة الأرض وفلاحتها فكافأه الله على الخير الذي أسداه إليهم بزيادة الغلة زيادة تفوق كل ما كان يؤمله وبعد ما كان السكن في أدفينا كريهاً وغير محبب إلى النفس صار الفلاحون يعدونه نعمة على ساكنيه فأقبلوا عليه من كل صوب يلتمسون الرزق فيه ويلحون في قبول طلباتهم لا مني وحدي بل من جميع رجال التفتيش وكان الملك كلما درى بذلك يوصيني بأن لا أدخر وسعاً في قبولهم وفي العمل لما فيه راحتهم وكانت أمامي مشكلة المباني ولم تكن مشكلة هينة فقد كان جلالته يريدها مباني جميلة ذات طابقين كما قدمت فكان يحثني على بذل ما فوق الطاقة لزيادة عدد هذه المساكن إراحة للفلاحين الراغبين في العمل في تفاتيشه

« ولكي أصور لك صورة صغيرة من ذلك المجهود العظيم أذكر انه لما توليت

العمل كان عدد سكان تفتيش أدفينا ثلاثة آلاف تفتك فيهم الأمراض ولا سيما الملاريا فغادرت التفتيش وعدد سكانه ٧٥٠٠ نسمة

« وزار تفتيش أدفينا رجل روسي ولما أتم زيارته قال لي : ما كنت أعتقد قط إن ملك مصر يعتني برعيته و بسا كني تفاتيشه كل هذه العناية أو بعضها ولو فعل قياصرة الروس بعض ذلك لما نشأت البلشفية في روسيا

« ولم تكن عناية الملك فؤاد بسا كني تفاتيشه ومزارعه تنتهي عند الاهتمام بصحتهم بل كان يساعدهم على اقتناء المواشي الكافية وأن تكون فى كل بيت جاموسة تدر اللبن لأهله ولم يكن هناك بيت واحد ليست فيه جاموسة أو بقرة وقد كوفىء على هذا الخير بما نوهت به قبلا أي بزيادة قدرة الفلاحين على خدمة الأرض وفلاحتها فزادت غلتها »

* * *

وهنا حدثنا الإبراشي باشا عن أمر ظل مجهولا جهلا تاماً في حياة الملك فؤاد ولم يعرفه سوى عدد يسير جداً من الناس . قال :

« وكان الملك فؤاد بعد تجربته الطويلة يرى أن نظام الإيجار بالنقد غير صالح تماماً و إنه لا يقوى على مواجهة الأزمات فأبدله بنظام يقوم على اشتراك المستأجر مع المالك فى الغلة ووصل في كرمه إلى أنه كان ينزل لمزارعيه عن نصف غلة كل محصول وطبق هذا النظام على أكبر تفاتيشه وهو تفتيش أدفينا فأفضى إلى نتيجة مرضية جداً وكانت نية جلالته متجهة إلى تعميمه فى سائر تفاتيشه

« ومن أغرب ما أظهرته هذه التجربة أنه لما شعر الفلاح بأن نصف ما تنتجه الأرض أصبح يؤول إليه واصل العمل ليلا ونهاراً و بذل مجهوداً كبيراً فكانت النتيجة باهرة وعادت بالخير على الفلاح وعلى الأرض معاً »

* * *

ومضى سعادة محدثنا في التكلم عن بر الملك فؤاد بالفلاح فقال :

« ولم يكن حدبه على الفلاح مقتصراً على ما تقدم بل كان من أحب الأمور إليه أن يدخل السرور على قلوب مزارعيه بطرق شتى وكان يأمرني بمشاركتهم في أفراحهم السنوية فتقام الموالد وتذبح الذبائح و إذا كان المولد ذا مقام خاص في نفوسهم شهدته بنفسي

« وقد قلت قبلا أنه كان من عادة جلالته أن يزور تفاتيشه مرة في السنة على الأقل فأقول هنا أن هذه الزيارة كانت فرصة يجتمع فيها بجميع المسؤولين عن أعمال التفتيش فيحادثهم ويناقشهم ويبدي لهم ما يعن له من ملاحظات ثم يضع السياسة التي يجب اتباعها في السنة أو في السنوات التالية فيكون هذا اليوم يوماً مشهوداً ذا نتائج باهرة

« وكان يطيب له في ذلك اليوم أن ينسى أنه ملك ويكره أن يناديه الفلاحون بلقب الملك وأن يهتفوا له لرغبته في أن يشعر بأنه فرد من الأفراد يعيش عيشة بسيطة في وسط موظفيه وفلاحيه متفقداً حالتهم باحثاً معهم كل ما يعود عليهم بالخير وكذلك كانت الزيارة فرصة لمنح الموظفين مكافآت وعلاوات وفي بعض الأحيان كان ينعم عليهم برتب ونياشين مكافأة لهم على إخلاصهم من جهة وتقديراً لخدماتهم للفلاحين من جهة أخرى »

* * *

وقال الإبراشي باشا بعد ذلك :

« و بعد ما أدرك الملك فؤاد هذا النجاح العظيم في مشروعاته الزراعية فكر في أن يخدم مصر من ناحية أخرى لم تكن محل عناية كبيرة من كثيرين فوجه سياسته الزراعية إلى تربية الماشية لأغراض شتى أولها تحسين اللبن وثانيها زيادة

اللحم وثالثها رفع مستوى مواشي الخدمة في الغيط وعني كذلك بتشجيع تربية الأغنام المصرية بعد ما فقدت كثيراً من مزاياها

« ونجح جلالته في ذلك بعد ما استورد من أوربا من أنواع الماشية شيئاً كثيراً فاستورد من هولندا « البقر الفريزيان » ومن انجلترا «الشورت هورن» ومن فرنسا « الشاروليه » ولم يهمل لحظة واحدة العناية بالمواشي المصرية وأشهرها الفصيلة البقرية في المنوفية والبقرة الدمياطية والجاموس أينما وجد حتى أنه فكر في استيراد جاموس من العراق ومن جاوه بل من الصين كذلك وأوجد لهذه المواشي من الزرائب ما لا مثيل له في مصر بتاتاً

« وعلم جلالته أن البابا أنشأ للبقر زريبة على أحدث الطرق الفنية فبزت جميع الزرائب التي من نوعها في اوربا فلم يسترح جلالته إلا بعد ما جلب رسوم هذه الزريبة وأمر بإنشاء زريبة على مثالها في أدفينا بعد إدخال تحسينات رئي ادخالها عليها وأنشأنا إلى جنب الزريبة مكموراً للسباخ يدار بطريقة ميكانيكية وينقل منه السباخ إلى الأطيان بطرق تسر خاطر من يشاهدها

« وزرت كثيراً من مزارع البلجيك وهولندا وفرنسا والدنمرك فلم أر فيها شيئاً يضارع ذلك »

* * *

وعاد سعادة محدثي إلى التنويه بتشجيع الملك فؤاد للفنيين المصريين فقال :

« وكان من أكبر ما يسره أن يعلم أن الفنيين المصريين يجدون في تفاتيشه كل ترحيب وكل تشجيع فالفضل في إنشاء الإصطبلات يرجع إلى اثنين من الشبان المصريين وضعا رسومها بعد ما درساها معي شهراً كاملاً و إنك لتدهش إذا علمت أنه بعد ما درست تلك الرسوم شهراً كاملا مع ذينك الشابين اللذين تعلما تعليماً فنياً راقياً في أوربا عرضت نتيجة البحث على جلالته فأصغى إليّ بانتباه شديد

ما يقرب من ساعة لم يقاطعني في أثنائها فلما انتهيت من الكلام قال لي إنه يسره أن يكون بين الفنيين المصريين من حذق هذا العمل وأن لا مانع عنده من تنفيذ مشروعهما بأكثر ما يقتضيه تنفيذه من مال ولكنه طلب إليّ أن أرجىء الشروع في ذلك إلى أن اطلع على بحث في هذا الموضوع أعده بعض الفنيين في فرنسا ونشر في مجلة زراعية ثم تفضل وأحضر هذه المجلة من مكتبه الخاص وأعطاني أياها وأوصاني بقراءة البحث فدهشت إذ وجدت أنه كان قد أشر على المقالة بقلمه كمن كان يريد أن ينبهني إليها ولم يكن يدري أنني منهمك بهذا البحث ولما اطلعت على البحث الذي تضمنته تلك المقالة سرني أن ألاحظ أن المبادىء التي أشار إليها العلماء الفرنسيون هي نفس المبادىء التي أشار بها الشابان المصريان فلما رفعت إليه هذه النتيجة قال لي : «إنني عرفت ذلك مما عرضته عليّ في المرة الأولى فالآن يمكنكم أن تنفذوا المشروع» فنفذناه على أحسن حال وكان ارتياحه كبيراً لما زار التفتيش ورأى ثمرة البحث مع هذين الشابين

« لقد كان رحمه الله كثير الاطلاع في جميع النواحي ومنها الناحية الزراعية فكان كلما وقف على شيء هام نبهني إليه بل كان يتفضل أحياناً بشراء بعض الكتب و يعطيني إياها لأطلع على ما جاء فيها فتزداد بذلك معلوماتي »

* * *

وقص عليّ الأبراشي باشا بعد ذلك قصة رائعة تتصل اتصالا وثيقاً بعمل الملك فؤاد الزراعي وتصف مدى احترامه للعلم وشدة تقديره لرجاله . قال :

« لما اشتهر في الأوساط الأجنبية أن الملك فؤاداً يعنى بالزراعة تلك العناية العظيمة ولا يغفل فرعاً ما من الفروع المتصلة بها كاشفه بعض أفاضلهم بأن الأكاديمية الفرنسية الزراعية ترى أنه مما يشرفها أن يكون جلالته عضواً فيها، فأجابهم بقوله أن مما يشرفه هو أن يكون عضواً فيها كما كان له من قبل الشرف بأن

يكون عضواً في الأكاديمية الفرنسية ولكنه يريد أن يعرف على أي أساس يختارونه عضواً وما هو الفرع الذي سيكون عضواً فيه لأنه يعلم أن في الأكاديمية الفرنسية للزراعة فروعاً متعددة فأجيب بأن المكان الخالي هو عن الغابات فقال وما شأني بالغابات و بلادي فقيرة في الأشجار ونحن لم نبذل بعد مجهوداً في هذا السبيل ؛ واعتذر بلطف عن عدم قبول العضوية

« و بعد أشهر عاد إليه رسولهم يعرض عليه العضوية في فرع تربية الماشية فأجاب بأنه شاكر للأكاديمية فضلها في التفكير فيه دائماً ولكنه يرى أنه غير جدير بهذه العضوية لأنه لا يزال مبتدئاً في تربية الماشية وأنه سيوالي حتماً العناية بهذا الفرع بكل ما أوتي من قوة أما الآن فإنه لم يبلغ بعد النتيجة التي تجيز له أن يكون عضواً في هيئة علمية عالية كهيئة الأكاديمية الزراعية

« وكرر اعتذاره في هذه المرة كذلك

« وكأنما كان اعتذاره الثاني حافزاً للأكاديمية على التشبث بعضوية هذا الرجل العظيم الذي يعلم حق العلم مقدار الشرف الذي يصيب المرء من عضويته في هيئة علمية عالية القدر كهذه ومع ذلك يبدي من أسباب الاعتذار ما ترتاح إليه النفس الكريمة — فانتهز رجالها فرصة خلو عضوية ثالثة في فرع إصلاح الأراضي والعناية بشؤون الفلاح وألحوا عليه في قبولها قائلين إن ما وصل إلى علم الأكاديمية عن عنايته بمزارعه وتفاتيشه وإصلاح الأراضي يبعثهم على الرجاء بأنه سيقبل عرضهم هذه المرة فكان جوابه : إنه لشرف كبير أن أكون محل عناية هذه الأكاديمية إلى هذا الحد والآن لا أستطيع الاعتذار ولكني أريد أن أكون مطمئناً أمام نفسي إلى أنني أستحق هذه العضوية ولذلك أشترط أن تنتدب الأكاديمية فنياً يزور تفاتيشي ويقدم لها عنها تقريراً من الناحية الفنية

فإذا رأت بعد اطلاعها عليه أنني جدير بأن أكون عضواً وقررت ذلك قبلت قرارها بارتياح

« وأكبرت الأكاديمية هذا الشعور السامي وندبت فعلا المسيو الجدور — وكان كبير الخبراء في البنك العقاري — ليزور التفاتيش الملكية ويضع عن كل تفتيش منها تقريراً فزارها واحداً بعد واحد ولما عرضت هذه التقارير على الأكاديمية قررت بالإجماع انتخاب الملك فؤاد عضواً عن الفرع الذي رشح له وسر رحمه الله بذلك وقال الآن أقبل هذه العضوية مرتاحاً بعد ما قرروا أنني أستحقها

« ودعا جلالته بعد ذلك عضوين من زملائه أعضاء الأكاديمية إلى مصر على نفقته ليريا بنفسيهما ما وصفه المسيو الجدور وصفاً موجزاً فقبلت الأكاديمية الدعوة بالترحيب والشكر وأوفدت إلى مصر اثنين من أعضائها فلم يتشرفا لسوء الحظ بمقابلة جلالته لمرضه فقابلتهما بأمر منه وأبلغتهما رغبته في أن يوافياه بما قد يبدو لهما من ملاحظات على التفاتيش بعد زيارتهما لها ، ثم رافقتهما في زيارتها كلها فرأيا نتيجة مجهوده المتواصل وثمرة سهره على خدمة الزراعة في مصر وسافرا بعد ما رغبا إليّ في أن أقدم للملك شكرهما وأن أنقل إليه أنهما شاهدا في تفاتيشه ما لم يكن يخطر لهما ببال وقال أحدهما وهو المسيو هيتيه إنه يجب على فرنسا أن تحتذي في الجزائر وتونس مثال الملك فؤاد في مصر

« ولما وصلا إلى فرنسا قدما للأكاديمية تقريراً نفيساً عن زيارتهما ومشاهداتهما وقد تلي هذا التقرير في جلسة دعي إليها وزير مصر المفوض في فرنسا »

* * *

وهنا جاء ذكر الظروف التي أنشىء فيها المتحف الزراعي فقال سعادته :

« حدث مرة أن سألني جلالته هل زرت بودابست فقلت لم يكن لي هذا الحظ يا مولاي فقد سافرت إلى أوربا ولـكني لم أر منها سوى فرنسا وسويسرا

« فقال جلالته إن المجر عنيت بانشاء متحف زراعي لم أر له مثيلا في أوربا وسأعطيك كتيباً صغيراً عن هذا المتحف لتقرأه ثم تكلمني في شأنه

« ولما فرغت من قراءة الكتيب أخبرت جلالته بذلك وقلت إنني معجب بكيفية تنظيم هذا المتحف فقال ألا تظن أن مصر وهي بلد زراعي في حاجة إلى متحف مثله ؟

« فقلت بلا شك يا مولاي ولـكن الأمر يقتضي مجهوداً شاقاً

« فقال جلالته : ولِمَ لا يبذل . فلنبدأ باقناع وزير الزراعة فاذا اقتنع سعينا لإقناع وزير المالية ورئيس الحـكومة فإذا اقتنع الجميع بفوائد المشروع خطونا خطوة التنفيذ

« وظل جلالته يرعى هذه الفكرة إلى أن قبلتها الحـكومة واختار بنفسه المـكان الذي أعد للمتحف وهو سراي المغفور لها الأميرة فاطمة ثم طلب من الحـكومة أن تدعو فنياً من المجر ليؤسس هذا المتحف وينشئه على غرار متحف بودابست

« ولما بدأ العمل كان يراقب سيره بنفسه ويوفدني من وقت إلى آخر لأطلع على مدى تقدم مراحله وأهدى إليه من تفاتيشه ما كان نواة صالحة له وما زال يتعهده بعنايته حتى تم في أواخر عهده وافتتحه جلالة الملك فاروق

« وإن من يزور هذا المتحف زيارة مدقق يبغي الفائدة الزراعية من زيارة كهذه يخرج ظافراً بمعلومات فنية ذات قيمة كبيرة . وإن المرء ليعجب بعد ما تم هذا العمل العظيم من المجهود الذي بذل لجمع معلومات زراعية فنية وما يتصل بذلك من صناعات زراعية لا حصر لها في صعيد واحد ، وقد شاء الملك فؤاد أن يكمل

فائدة هذا المتحف من الوجهة العلمية البحتة فأنشأ فيه قسماً خاصاً بالزراعة في أيام الفراعنة وأوجد في هذا القسم من محصولات مصر الزراعية وحيواناتها ونباتها وطريقة معيشة أهلها ما هو محل إكبار وإعجاب كل من زار هذا القسم التاريخي في متحف فؤاد الزراعي »

* * *

وقال زكي باشا بعد ذلك :

« والواقع أن نظرة الملك فؤاد إلى الزراعة فى مصر كانت قائمة على الرغبة الصادقة فى إعلاء شأنها وإسعاد أهلها وكان في سبيل ذلك لا يبالي بما ينفق من مال

« وإني أشعر بأنه ليس بين المصريين إلا قليلون جداً يعرفون أن جلالته أنفق من ماله ما يربى على مليون جنيه في تفتيش واحد وهو تفتيش ادفينا أكبر تفاتيشه

« أنفق هذا المبلغ العظيم في شرائه وإصلاحه وفي كل ما يعود بالخير على ساكنيه ولم يكن ينفق كل ريع هذا التفتيش وحده بل كان يضيف إليه كل سنة مالا كثيراً من جيبه ويثابر على هذه السياسة وهو يعلم أنه لا يدخل خزينته قرش واحد من هذا التفتيش مؤملاً أنه سيأتي اليوم الذي يستفيد شخصياً مما أنفقه ولكن كان هناك شيء واحد لم يغفل عنه وهو أنه لا يمر يوم من دون أن تغدق فيه حسناته على ساكني هذا التفتيش والأراضي المجاورة له وكانت النتائج السنوية تشجعه كثيراً على المضي في هذا الطريق الصالح واضعاً دائماً مصلحة ساكني التفتيش وجيرانه فوق كل اعتبار

« وقلت لجلالته مرة إن إصلاح هذا التفتيش المترامي الأطراف غير ممكن ما دامت حالة الري فيه على غير ما يرام فان هذا التفتيش كان يروى من ترعة

الرشيدية وهي آخر ترعة في شمال مديرية البحيرة ووصول الماء إليها صعب شاق وفي فصل الصيف يجد رجال الري مشقة وعنتاً في إيصال الماء إليها فقلت لجلالته كيف يمكن مع هذا إصلاح ١٦ ألف فدان وعرضت عليه أن انفق من ماله نحو خمسين ألف جنيه لأنشىء محطات ري على النيل مباشرة وأحفر ترعة طولها خمسة عشر كيلومترا على نفقته لنسقي التفتيش بماء نحصل عليه بآلات الري من النيل عندما يصبح النهر في تلك المنطقة منقطعاً عن القناطر الخيرية فلا تصل إليه من الماء الصيفي قطرة واحدة ويتحول إلى بركة يتجمع فيها ماء الرشح وهو ماء وإن احتوى على بعض الملوحة يصلح تماماً لري الأطيان ويمكن أن تروى منه أطيان التفتيش وبهذه الكيفية يترك ماء الترعة الرشيدية للجيران فيكون من وراء ذلك رحمة بالجيران وإصلاح للتفتيش وإراحة لموظفي الري من غير إضرار بأحد فان الماء الذى سيروى منه التفتيش صيفاً هو ماء رشح يلقى في البحر المتوسط عندما يرد ماء الفيضان ويستعان به أحياناً في تغذية ترعة المحمودية عند ما يشح الماء وما يؤخذ لتفتيش أدفينا بالآلات لا يؤثر في ترعة المحمودية مطلقاً

« بسطت لجلالته ذلك بعد ما درست الموضوع درساً وافياً فأقرني رحمه الله على فكرتي وقال إذا استطعت أن تقنع رجال الري بذلك فافعل

«وكنت واثقاً من أن رجال الري يستقبلون المشروع أحسن استقبال ويعدونه نعمة وبركة عليهم لأنه فضلاً عن أنه لا يكلف الحكومة شيئاً سيمكنهم من مد جيران الملك بماء ترعة الرشيدية ولم يخب ظني فاني لما عرضت المشروع على مفتش الري المختص — وكان انجليزياً — قابله بارتياح شديد مشترطاً أن لا ننتفع بماء الترعة الرشيدية صيفاً وأن تسد الفتحات التي للتفتيش على هذه الترعة فقلت له إنني لما فكرت في المشروع بنيته على هذا الأساس أي على أساس سد الفتحات التي على ترعة الرشيدية وزدت على ذلك قولي إنني سأسد هذه الفتحات

على نفقة الملك وسأسدها بالأسمنت المسلح حتى يكون واثقاً من أن النية خالصة فأعطاني الترخيص في خلال سبعة أيام أتم فيها بحوثه ، وكانت هذه خطة الخاصة الملكية أي أنها تخضع كالأفراد في جميع أعمالها لأحكام القوانين واللوائح بكل تدقيق ، ونفذت المشروع فعلاً فكلف ما يربي قليلاً على خمسة وأربعين ألف جنيه أنفقتها من مال الملك فردها الله إليه مضاعفة إذا سار الإصلاح في التفتيش بسرعة مدهشة وزادت خيراته و بركاته زيادة طيبة

« وحدث أن شح ماء النيل في سنة ١٩٣١ وخشى الناس أن لا يتمكنوا من إطفاء الشراقي لزراعة الذرة والذرة كما هو معلوم غـذاء الفلاح فأقلقت هذه الحالة الملك فؤاداً وشغلت باله وخصوصاً فيما يتعلق بمديرية البحيرة فان رياح البحيرة ليس من الكفاءة بدرجة تجعل الري في البحيرة مطمئناً وتزداد حالته سوءاً إذا شح ماء النيل ولم يغذ التغذية الكافية من القناطر الخيرية فيجب في هذه الحالة تغذيته من ماء « بركة النيل » في فرع رشيد

« فما كان من جلالته ألا أن أمرني بأن أبلغ رئيس الحكومة — وكان إذ ذاك دولة اسماعيل صدقي باشا — هذا الاهتمام من جانبه بالحالة مع رجائه ببذل أقصى جهد لكي يتم ري الشراقي في جميع المديريات على أحسن حال وفي أسرع وقت مستطاع وخصوصاً في مديرية البحيرة

« واهتم دولة صدقي باشا بالموضوع اهتماماً كبيراً وترأس اجتماعاً من كبار رجال الري فكان من رأي بعضهم أن إطفاء الشراقي ممكن ومتيسر ولكنه يخشى إذا أخذ الماء بكمية كبيرة من بركة النيل في فرع رشيد أن يؤثر ذلك في طلمبات ري أدفينا القائمة على النيل وقد تموت زراعة هذا التفتيش عطشاً . . .

« فلما رفع ذلك إلى مسامع الملك فؤاد قال بغير تردد : لتمت زراعة ادفينا إذا كان في ذلك مصلحة لأهل البحيرة بإطفاء شراقيهم في الميعاد المناسب

« وأمر صدقي باشا رجال الري بادارة طلمبات العطف وتغذية ترعة المحمودية تغذية كافية لري الشراقي في البحيرة فتم الري على أحسن حال وزال الخطر عن الزراع

« ولحسن الحظ لم تقف طلمبات أدفينا على رغم من هبوط منسوب بركة النيل إلى ما تحت ٤٠ سنتيمتراً وسلمت زراعتها ولم يضع على الملك شيء كما كان بعض رجال الري يخشى

« ومما آسف له أشد أسف أنني لم أسلم — ولم يسلم الملك — من بعض ألسنة السوء فقد زعم أجنبي أنني آخذ الماء لأرض الملك وأحرم منها الجيران وشكا من ذلك بل ذهب إلى كتابة مقالات في إحدى الجرائد الأجنبية فرأيت أن لا أقف مكتوف اليدين إزاء هذه الفرية الباطلة ولاسيما أنني أنفقت بيدي ما يزيد على خمسة وأربعين ألف جنيه من مال الملك لا لخدمته وحده بل رأفة بجيرانه كذلك وبراً بهم

« وكان الرجل قد رفع دعوى على وزارة الأشغال يطالبها بتعويض بحجة أنها حابت الخاصة الملكية فدخلتُ خصماً ثالثاً في الدعوى وطالبت بتعويض قدره ١٠١ جنيه وبسطت الحقائق المتقدمة المحكمة المختلطة وقد نظرت الدعوى في أثناء غيابي في بروكسل فعينت المحكمة ثلاثة خبراء أحدهم بريطاني والثاني إيطالي والثالث مصري فقدموا لها تقريراً أثبتوا فيه أن الخاصة الملكية عملت هذا العمل في حدود القانون واللوائح وأنها إذا كانت قد أفادت نفسها فقد أفادت الجيران كذلك ومنهم المشتكي

« وزاد الخبراء الثلاثة على ذلك في تقريرهم قولهم إنه لايسعهم إزاء العمل الزراعي والإنساني والاجتماعي الجليل الذي عمله الملك فؤاد في هذا التفتيش إلا أن يشيدوا بذكره

« وحكمت المحكمة برفض دعوى المدعي وألزمته بمئة جنيه تعويضاً لي عما

افتراه كما حكمت عليه بالف جنيه اتعاباً للخبراء وثلاث مئة جنيه اتعاب محاماة ونشر الحكم فى جرائد عربية وافرنكية

« وكان المدعي أول من يعلم افتراءه على الحق وجرأته عليه فلم يستأنف الحكم وقبله فيما يتعلق بالخاصة ونفذه

« وكان هذا آخر ما درى به الملك الراحل الكريم قبل أن يلقى ربه عن عمل ناظر خاصته »

* * *

وختم الإبراشي باشا حديثه بقوله :

« وقبل أن أختتم حديثي معك أذكر لك ما حدث بيني وبين الملك الراحل قبل أن أبدأ عملي في خاصته الملكية

« قلت لجلالته : أرجو يا مولاي أن تبين لي المبادىء التي يجب عليّ أن أسير عليها فى ادارة خاصتك

« فقال لي رحمه الله : إنها بسيطة جداً . لقد اخترتك ناظراً لخاصتي وقد كنت من رجال القضاء وكان ناظر الخاصة الذى قبلك من رجال القضاء وكان ناظر الخاصة قبله من رجال القضاء وكان ناظر الخاصة الذي قبله من رجال القضاء كذلك فاختياري لناظر خاصتي من رجال القضاء دائماً يرجع إلى سبب واحد وهو إنني أريد إذا تكلم معي أي إنسان عن ناظر خاصتي وقال لي أنه فعل كذا مما لا يصح فعله أستطيع أن أرد عليه في الحال قائلا لا أعتقد أن هذا حدث فإن ناظر خاصتي من رجال القضاء فلا يمكن أن ترتاح ذمته إلى عمل كهذا

فقلت لجلالته : كفاني هذا يا مولاي وسيكون ذلك رائدي في خدمتك . ويعلم الله أنني ما حدت عن هذا المبدأ طول مدة خدمتي له ويقيني أنه غادر هذه الدار الفانية وهو عني راض »

قدوة لما فى التنويه بفضل الصناعة المصرية وتوجيه النظر إلى أن ما يخرجه الصناع المصريون الحاذقون يصلح لأن يهدى إلى الملوك وأن تزدان به قصور العظماء

* * *

وفي عهد جلالته رفعت مصلحة الصناعة والتجارة إلى وزارة قائمة بذاتها